



الحارث بن أسد المحاسبي

مؤسس علم الوسائوس والخطرات "علم النفس"

إبراهيم بوزيداني

دكتور محاضر، جامعة إسطنبول كلية الإلهيات، قسم علم النفس الديني، تركيا

ibrahim.bouزيدani@istanbul.edu.tr Orcid.org/0000-0003-3585-9352

Al-Harith bin Asad Al-Muhasibi, The Founder of the Science of Insinuations and Phantasms "Psychology"

Ibrahim Bouزيدani

Dr. Öğretim Görevlisi., Istanbul University Faculty of Theology, Department of Psychology of Religious, Turkey

ibrahim.bouزيدani@istanbul.edu.tr Orcid.org/0000-0003-3585-9352

المقدمة

عند دراسة تاريخ نشأة وتطور علم النفس الحديث، نجد أن الكثير من المصادر الغربية وحتى العربية تشير إلى محطتين هامتين وهما: الأولى تتمثل في أعمال كل من عالمي الأعصاب، الروسي إيفان بفلوف (Ivan Pavlov) (1849 - 1936) والطبيب الألماني لهلم فونت (Welhilm Wundt) (1832 - 1920)، والثانية تتمثل في المدرسة التحليلية وأعمال مؤسسها سيغموند فرويد (Sigmund Freud) (1856 - 1939)¹. فالمحطة الأولى أخرجت علم النفس من دائرة الفلسفة، ووضعت في دائرة العلم التجريبي من خلال التفسير البيولوجي للسلوك البشري، والمحطة الثانية حاولت تفسير السلوك الإنساني من خلال الجهاز النفسية اللاشعوي للإنسان. وربطوا هذا التطور بأعمال فلاسفة وعلماء الحضارتين الإغريقية والرومانية. وأبعدت أو تجاهلت جهود وأعمال الكثير من العلماء في باقي الحضارات والثقافات الشرقية. وأصبحت هذه النظرة التاريخية المبتورة لتطور علم النفس هي الحقيقة المعتمدة في مشارق الأرض ومغاربها دون محاولة جادة لتمحيصها والتأكد من صحتها وفق المعطيات التاريخية والثقافية لمختلف الشعوب والملل.

هذه النظرة المتحيزة كان لها آثار سلبية عديدة وبخاصة في الجانبين، المعرفي والأخلاقي. فمن الجانب الأخلاقي، طبع هذا التصور المبتور في أنفس طلاب العلم والمعارف النفسية المسلمين عقدة النقص، بحيث أصبح من المسلمات أن العلوم النفسية والاجتماعية هي علوم غربية بحتة، وأن للمدارس الغربية يد السبق في رسم منطلق هذا العلم ومناهجه ووجهته المستقبلية، هذا من جهة. ومن جهة أخرى نجد أن لهذا التاريخ المبتور ضرراً معرفياً، بحيث يحرم الدارسين والباحثين في المجالات النفسية والاجتماعية من موارد وحقائق ومساهمات جادة من علماء وباحثين من مختلف الثقافات. لذلك ومن هذا المنطلق التاريخي والمعرفي والأخلاقي، كان من الواجب التعريف بمساهمات الثقافة الإسلامية ودورها السباق في نشأة وتطور العلوم النفسية والاجتماعية من أجل إثراء حقول المعرفة وتنوير مختلف الثقافات بهذه الانجازات العلمية الهامة.

ولعل من بين أبرز من كانت لهم إسهامات مهمة في نشأة علم النفس في الحضارة الإسلامية، الفقيه والمتكلم وعالم السلوك الحارث بن أسد المحاسبي (ت. 857/243)، لذا سندعى من خلال هذا العمل على إعطاء معالم وأسس تدعم ادعاءنا القائل إن المحاسبي هو المؤسس الأول لعلم جديد -علم النفس- عجز معاصروه على فهمه أو استيعابه، بحكم افتقار تلك الفترة لمناهج

¹ علي زيعور، *علم النفس في ميادينه وطرانقه*، (بيروت: مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، 1993/1413)، ص 35.

وآليات تُسهّل استيعاب مثل هذه المعرفة الجديدة. فرغم أننا نجد إشارات مهمة من بعض المستشرقين مثل المستشرق الألماني ثيودور نولدكه (Theodor Noldeke) (1836 - 1930)، بأنه إمام التحليل النفسي بين علماء الإسلام، إلى المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون (Louis Massignon) (1883 - 1962) الذي اعتبر المحاسبي محللاً نفسياً من الطراز العالمي. إلا أننا لا نجد تأصيلاً معرفياً واضحاً لجهود المحاسبي في سعيه لتطوير علم النفس والتفاصيل التأسيسية له.

لذلك سيركز هذا العمل على إبراز الرحلة النفسية والفكرية التي مرّ بها المحاسبي في إنتاج هذا الفرع المعرفي الجديد الذي جهله من حوله ووقع بسببه ضحية للنقد والهجران من علماء زمانه، وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل، رغم إعجابه بعلو كعبه في علاج النفوس وتوجيهها. وما يُميّز عمّلنا هذا عن غيره، هو أنه يؤصل لفكرة أنّ المحاسبي هو مؤسس علم النفس في العالم الإسلامي. حيث سندعم هذا الزعم بمجموعة من الأدلة التاريخية وما توصل إليه بعض الدارسين لفكره. كما تختلف هذه الدراسة بأنها أصلت لمدرسة المحاسبي النفسية، وحددت مراحل التأسيس بنوع من الدقة، والمنهجية المعرفية التي استخدمها للتأسيس لهذا العلم الجديد. فمن هو عالم النفس هذا؟ وكيف توصل إلى هذا العلم الجديد؟ وما هي التسمية التي خصّ بها هذا الفرع المعرفي في ذلك الزمن؟ وقبل ذلك كله ما هي الظروف السياسية والمعرفية التي ساهمت في صقل شخصيته الفكرية والسلوكية؟ وما هي أهم إسهاماته العلمية في علم النفس؟ ولكن قبل الشروع في الأسئلة، نخرج أولاً بالحديث عن المنهج المستخدم في هذه الدراسة.

1. منهج الدراسة

اعتمدنا في دراستنا هذه على تقنية تحليل المحتوى الاستقرائي Inductive Content Analysis، وتعتبر من المناهج البحثية المعتمدة، وتستخدم في العديد من فروع العلم والمعرفة. حيث تركز هذه التقنية على وصف البيانات النصية، وتفسيرها، باستخدام عملية منهجية للترميز، والتفسير، تهدف إلى تطوير المعرفة وفهم الظاهرة قيد الدراسة.² وهي منهجية تتناسب وطبيعة دراستنا، حيث سندسعى لاستقراء أهم التراث المدون والمطبوع للإمام المحاسبي، والذي يخدم دراستنا. ونستخلص من خلالها النصوص التي تساعدنا في رسم معالم المنهجية العلمية والعملية التي اقترحها المحاسبي في تعديله لسلوك الإنساني.

يرى بعض الباحثين أن لتقنية تحليل المحتوى الاستقرائي خمس خطوات مهمة حيث يصل الباحث من خلالها إلى مراده المعرفي. وتتمثل هذه الخطوات في الآتي: الخطوة الأولى وتتمثل في القراءة والتعرف على النصوص المراد دراستها، وفي الخطوة الثانية يقوم الباحث بتحديد الصورة

Assarroudi, A, Nabavi, F, Armat, M, Ebadi, A. and Vaismoradi, M., "**Directed qualitative² and elaboration of its underpinning methods and data content analysis: the description analysis**", Journal of Research in Nursing, 23/1, (2018): 5.

الكبرى للموضوع المستهدف بالدراسة؛ أما الخطوة الثالثة فتتمثل في تحديد المعنى والنصوص الدقيقة المعبرة عن موضوع الدراسة؛ بعد عملية التدقيق السابقة تأتي الخطوة الرابعة لتركز النقاط النوعية في النصوص، والتي تعتبر المداخل الأساسية لمكونات وعناصر الدراسة -لذلك نجد من الباحثين من يسمي هذه التقنية بـ "تحليل المحتوى النوعي Qualitative Content Analysis" -؛ وتختتم هذه التقنية بخطوة خامسة تتمثل في التوليف والتفسير لتلك المعلومات النوعية المستقاة من النصوص الأصلية أو الفرعية، وإعادة بناء منتج معرفي جديدة.³ وسنسعى خلال مراحل عملنا هذا، تتبع خطوات هذا المنهج من أجل الوصول إلى الفائدة المرجوة، وهي تحديد معالم الفرع المعرفي الجديد الذي أبدعه الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى، وموضوعه والمنهج الذي استخدمه لذلك الغرض.

لكن ومن أجل الفهم الجيد لفكر الإمام المحاسبي، كان من الواجب التعرف على السياقات السياسية والاجتماعية والفكرية التي ساهمت في بناء نفسيته وشخصيته، وفكره.

2. الأوضاع الفكرية والسياسية والاجتماعية والبناء المعرفي والنفسي للمحاسبي

البيئة، والسياسية، والثقافة، والأوضاع الاجتماعية والفكرية، كلها عناصر تركت بصمتها في البناء الفكري والعاطفي والنفسي والسلوكي للإمام المحاسبي. فمن غير الممكن فهم فكر المحاسبي دون فهم المحيط العام الذي نشأ فيه. ولد المحاسبي في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، حوالي 165 هـ/781 م بالبصرة، وتوفي ببغداد سنة 243 هـ/857 م. كانت الأوضاع خلال حياته تختلج جراء الصراعات السياسية والفكرية والاجتماعية آنذاك.⁴ ولعل انتماء والده للقدرية⁵ كما ذكر كُتَّاب سيرته، لأكبر دليل على حساسية الوضع حوله. وهذا الواقع الأسري، يوحي بأن المحاسبي كان على احتكاك بمصادر معرفية عالية خلال طفولته، ومن المؤكد أنه كان يسمع النقاشات المعرفية العميق حول مسائل متعددة حول الاعتقاد والفقه والسياسة والاجتماع، وهذا ما سيصنع منه مستقبلاً متكلماً بارعاً، صاحب قدرات عالية في الرد على المعتزلة من جهة، ومن جهة أخرى خصماً لدوداً لكل التوجهات الفكرية المعادية لفكر أهل السنة، من صفوية وقدرية ومعتزلة. كما أن هذا التكوين التجريدي غير المباشرة أهله للتعامل العميق مع أسرار النفس وحركة الفكر والشعور. وأورد السمعاني (ت. 1166/562) في كتابه الأنساب متحدثاً عن المحاسبي، تصديقاً لما أوردناه، ما

Vears, D.F., & Gillam, L., "Inductive content analysis: A guide for beginning³ qualitative researchers. Focus on Health Professional Education", A Multi- /1 (2022): 111-127.23 Professional Journal.

⁴الحارث بن أسد المحاسبي، *الوصايا*، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، 1986/1406)، ص: 18.

⁵ أبو القاسم القشيري، *الرسالة القسيرية*، تحقيق: عبد الحليم محمود (القاهرة: مطبعة مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر، 1989/1409)، ص: 57.

يلي: "له كتب كثيرة في الزهد وفي أصول الديانات والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة، وكتبه كثيرة الفوائد جمعة المنافع".⁶

2.1. المحاسبي والتغيرات السياسية والاجتماعية

سياً نجد المحاسبي عاصر ثمانية من خلفاء الدولة العباسية. فقد ولد خلال فترة حكم الخليفة موسى بن محمد المهدي (الهادي) (169-170هـ). وعندما بلغ سنه الخامسة تولى الخلافة هارون بن محمد أبو جعفر (الرشيد) (170-193هـ)، ثم محمد بن هارون الرشيد (الأمين) (193-198هـ)، فعبد الله بن هارون الرشيد (المأمون) (198 - 218هـ)، وإبراهيم بن المهدي (202-203هـ)، ومحمد بن هارون الرشيد (المعتصم) (218-227هـ)، و هارون بن محمد (الواثق) (227-232هـ)، وجعفر بن محمد المعتصم (المتوكل على الله) (232-247هـ).⁷ حيث نجد أن الفترة التي عاش فيها المحاسبي تتميز بأمرين، فمن جهة عاش العصر الأول للدول العباسية، والذي تميز بالازدهار الصناعي والتجاري والعسكري والفكري، وهو الفترة الممتدة من 132هـ وحتى 232هـ. ومن جهة أخرى شهد بداية فترة الانحطاط والانحدار، وهي الفترة التي تبدأ من فترة خلافة جعفر بن محمد المعتصم بداية من سنة 232هـ وما بعدها.

فنجد أن المحاسبي شهد الاستقرار السياسي والعسكري، وما يصحبه من أخلاق العزة والقوة ونهضة متعددة الجوانب، وما يكون لها من انعكاسات على الواقع الاجتماعي. كما نجده أيضاً قد شهد انبساط النعمة وانطلاق الناس فيها دون شكر أو تقدير، بل سخرت هذه النعم في معصية الله عز وجل والتمادي في مظاهر المجون والانحراف. وشهد ويلات الصراع السياسي وكيف أن الدماء البريئة قد تسفك دون وجه حق. كل هذه المعطيات تركت بصمتها في نفسية الإمام المحاسبي ومنهجه الفكري والذي سيظهر في سلوكه ونشاطه المعرفي مستقبلاً. وأيضاً سيكون قادراً على تحليل الانحرافات التي تنتج عن الرقي الاجتماعي والأمان السياسي، وتلك الشوكات والحالات النفسية الناتجة عن الأوضاع الاجتماعية المتردية، والفوضى السياسية.

2.2. المحاسبي والتغيرات الفكرية والمذهبية

في هذا التوقيت الذي كانت تموج فيه الأوضاع السياسية صعوداً وهبوطاً، كانت هناك تغيرات على الساحة الفكرية لا تقل خطورة عن تلك التي تحدث في السياسة. بل يمكن اعتبارها المحرك الحقيقي للتغيرات التي حصلت في الجوانب السياسية والاجتماعية، والتي كان لها أيضاً بصمة خاصة في ميولات وتوجهات الإمام المحاسبي الاعتقادية والسلوكية والمعرفية. فبعد أن كانت الدولة الأموية تخوض صراعاً وجودياً مع الخوارج والشيعية، حيث قامت بحصر نفوذهما وتحجيم

⁶ أبو سعد محمد بن منصور التميمي السمعاني، **الأنساب**، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وآخرون، (حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، 1977/1397)، 12: 103.

⁷ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق: اللجنة العلمية بمركز دار المناهج للدراسات والتحقيق العلمي، الطبعة 2. (جدة: دار المناهج للنشر والتوزيع، 2013/1434)، ص 417-537.

خطرهما، توجه الشيعة من الصراع العسكري والسياسي إلى تركيز أسس مذهبهم في التشريع والعقيدة. وبدأت بوادر صراعات فكرية جديدة تبرز في الساحة المعرفية والاعتقادية في المجتمع الإسلامي. من جهة أخرى، وقعت الدولة الأموية في تحدٍ جديد اخترق أن تكون ضمن أروقة الحكم، والمتمثل في التيار الجبري المنحرف، والذي جاء به الجعم بن صفوان.⁸ هذا المذهب الذي دفع إلى التماهي أو التملق من بعض العلماء للحكام سيكون سبباً في توجه عام يحكم علماء أهل السنة مستقبلاً في الابتعاد عن أبواب الحكام أو غشيان مجالسهم. وهذا كان نهج الإمام المحاسبي طوال حياته. وجاءت حادثة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ورفضه الولاء بالطاعة للحجاج بن يوسف الثقفي، لكي تؤصل لفكر الولاء النفسي والخضوع الديني التام للسلطة السياسية بغض النظر عن أدائها الأخلاقي. لهذا نجد فتادة يعلق على هذه المسألة قائلاً: إنما أحدث الإرجاء هزيمة ابن الأشعث".⁹ وبهذا نجد الفكر الإرجائي جاء ليتيم ما أسس له فكر الجبري، ورسماً معاً معلماً وأسساً منحرفة في الممارسة السياسية والاعتقادية.

جاء هذا الصراع، كان من الواجب على علماء أهل السنة والجماعة أن يواجهوا هذه الانحرافات الفكرية والعقدية والتي ألفت بظلالها على الحياة السياسية والاجتماعية. وحمل لواء هذه الحملة الحسن البصري، حيث عملوا على الموازنة بين الآراء وتوضيح مكان الخطأ والانحراف. وسنجد أن الإمام المحاسبي هو امتداد طبيعي لهذه المدرسة وما تدعوا إليه من فكر وما توجه إليه من سلوك سياسي واجتماعي. وفي القرن الثاني الهجري، ومن صلب مدرسة الحسن البصري، ولدت فرقة جديدة سميت بالمعتزلة، تزعمها واصل بن عطاء وعمر بن عبيد وهما تلامذة الحسن البصري. حيث حاولت هذه المدرسة الموازنة بين فكر الجبر والقدرية، لكن بمنهج مخالف لما كان عليه الحسن البصري ومدرسة أهل السنة. وبنهاية القرن الثاني الهجري أصبح مذهب الاعتزال منهجاً فكرياً مستقلاً، حيث كان لحركة ترجمة كتب الفلسفة اليونانية دور هام في دعم مذهبهم. ويرى بعض الباحثين أن الفكر الاعتزالي هو من شكل روح المحيط الثقافي الذي قامت على أسسه الدولة العباسية.¹⁰

وبهذا نرى أن المحيط الذي نشأ فيه الإمام المحاسبي وهو البصرة أو بغداد التي انتقل إليه لاحقاً، كان يعجُّ بحركة فكرية تتسم بالتناقض والتدافع. وأن هذه الحركة الفكرية كانت شديدة وعنيفة. وكانت تسعى لاختراق أروقة السياسة والمساجد والحياة الاجتماعية. ونجد أن والد المحاسبي نفسه كان قدرياً، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. لكنه ورغم هذا الواقع الأسري الذي نشأ فيه

⁸ أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، *العقد الفريد*، تحقيق. مفيد محمد قمحية، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1983/1404)، 1: 46.

⁹ عبد الله بن أحمد بن حنبل، *السنة*، تحقيق. محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، (الرياض: دار ابن القيم، 1986/1406)، 1: 319.

¹⁰ الحارث بن أسد المحاسبي، *العقل وفهم القرآن*، تحقيق. حسين القوتلي (بيروت: دار الفكر، 1971/1391)، ص 11.

المحاسبي، إلا أنه تأثر بفكر والدته التي كانت على مذهب سني سليم.¹¹ وهذا ما يبرز لنا شخصية المحاسبي المستقلة، والمتمتعة بمنطق سليم، وكذا الرعاية الربانية له، بأن حفظ من اتباع المناهج المنحرفة منذ صغره. وهذه الرعاية ستتجلى أيضا في سلوكاته اليومية وعلاقته بخالقه سبحانه وتعالى. كما نجد أن انتماء والده للفكر "حرية الإرادة والخير" قد ساعده على الاطلاع على فكرهم، وكذا الاحتكاك برجال الفكر والكلام. هذا ما سيشحذ ملكات المحاسبي الكلامية والجدلية، ويسخرها فيما بعد للرد على شبهات الجبرية والقدرية وغيرهما من المذاهب المنحرفة.

2.3. المحاسبي والمدارس الصوفية والفقهية

بالإضافة إلى ما سبق من تقلبات السياسية والفكرية، كانت هناك حركة معرفية مهمة بين علماء أهل السنة. أين نجد أن المدارس الفقهية والسلوكية أخذت في التبلور وكسب اهتمام العامة والخاصة بما تبلوره من آراء تمس الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. حيث نجد أن الحسن البصر يواصل شق طريقه السلوكي والتربوي، حيث أسس لمدرسة تصوفية تجمع بين التكوين الشرعي والاعتقادي السليم، بالإضافة إلى التربية السلوكية والمعنوية القويمية. وهي المدرسة التي ستكون منطلق الإمام المحاسبي ومحور تربيته ودعوته. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الكثير من التغيرات حصلت في مدارس التصوف وبدرجات متفاوتة خلال الفترة الفاصلة بين الحسن البصري ومدرسته الأولى ووصولاً إلى الفترة التي عاش فيها الإمام المحاسبي. بين كل تلك التغيرات الحاصلة في المدارس الفقهية والتصوفية، نجد أن الإمام المحاسبي كان يجنح دائما لذلك التوجه المحافظ على المعين الصافي للقرآن والسنة. حيث نجده أن في الجانب السلوكي، جعل المدرسة البصرية مرجعيته، وفي جانبه الفقهي جعل أهل الحديث مرجعيته.

وبهذا نجد أن التكوين المعرفي والسلوكي للمحاسبي استند أساساً على أعلام أهل السنة في الحديث والفقه والسلوك، وهذا ما يؤهله لتحديد توجهه المستقبلي واستقراء معالم السواء والانحراف في مسار المدارس الكلامية والتصوفية، والفقهية، وأثارها في الفكر والسياسة والاجتماع. ويرسم من خلال هذه المعطيات مساره الإصلاحية. ومما تجدر الإشارة إليه فهذا المقام، هو أن الإمام المحاسبي ليس "مصلح أو فيلسوف دور الانحطاط" كما وصف المفكر بوتول Bouthoul (1971)¹² ابن خلدون وابن تيمية وأبو حامد وغيرهم من المصلحين الذين انتقدوا الأوضاع الاجتماعية في فترات كانت فيها الأمة الإسلامية في أسوأ أحوالها. بل على العكس من ذلك وكما رأينا في ذكرنا للأوضاع السياسية والاقتصادية التي عاشها فيها المحاسبي، فقد كانت تعتبر الفترة الذهبية للدولة العباسية. فهو من جهة عاش مراحل قوة الدولة وعرف مقومات القوة والعز

¹¹ فريد الدين عطار النيسابوري، **تنكرة الأولياء**، ترجمة: محمد الأصيلي الوسطاني الشافعي، تحقيق: محمد أديب الجادر،

(دمشق: دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، 2014)، ص. 291.

¹² جاستون بوتول، **تاريخ علم الاجتماع**، ترجمة: غنيم عبدون، مراجعة: جلال حسن صادق، (القاهرة: المطابع القومية للطباعة والنشر، 1971)، 24.

ففيها، كما أدرك مثالب الداء النفسي والاجتماعي لها. كما عاش فترة بداية الانحدار وخبر أيضا مكان الداء فيها. فبالتالي تعتبر مدرس الإمام المحاسبي الإصلاحية متميزة بحكم أنها ذات طابع استشرافي، يسعى إلى ترسيخ ثقافة الإنمائية –أو التطويرية-، والوقائية، قبل الوقوع في الحالة المرضية والتي يبحث لها عن علاج في هذه الحالة.

3. المحاسبي ورحلته النفسية، من تحليل الذات، إلى معالم مدرسة الخطرات والوساوس¹³

3.1. الرحلة النفسية ومنهجية تحليل الذات

من أهم العمليات الفكرية والنفسية التي تميز بها المحاسبي في تأسيس مدرسته الإصلاحية أو بتعبيرٍ معاصرٍ، مذهبه في "تعديل السلوك"، هو الانطلاق من خلال ما يسميه وليم جيمس William James (1910/1842) في علم النفس بـ "الملاحظة الإستبطانية" Introspective observation، أو ما يسميه فرويد بـ "تحليل الذات" Self-Analysis، أو أيضا "ملاحظة الذات" Self-Observation.¹⁴ حيث نجد أن المحاسبي وخلال لحظة زمنية مهمة في مسار حياته، توقف للتأمل في ماضيه، من أجل تحديد مساره المستقبلي. لحظة تأمل داخلي هدف من خلالها إعادة ضبط بوصلة حركته وتوجهه. كيف لا وهو يعيش في مجتمع يهوج ويموج بتغيرات شديدة على مختلف المستويات الفكرية والمعرفية والاجتماعية كما وضّحنا ذلك في البداية. حيث قام الإمام المحاسبي بقراءة نفسية-اجتماعية لواقعه، إذ نجده قد انطلق من تحليل واقع المجتمع على مختلف المستويات، ووصل من خلال ذلك إلى طرح سؤال وجودي مهم، وكأنني به يقول: "أين أنا بين كل هذه التغيرات؟ ومع من يجب أن أصطف؟ وما هو المسار الذي يجب أن أتبعه للوصول إلى إجابة شافية؟" ولنفهم دواعي هذه الرحلة وتفاصيل مسارها، ونتائجها، دعنا نرجع إلى وصف المحاسبي بنفسه لهذه الرحلة النفسية.

يقول المحاسبي "مضت على ثلاثون سنة لم أسمع فيها شيء إلا من رأسي، ثم دارت عليّ ثلاثون أخرى لم أسمع فيها شيء إلا من الله"،¹⁵ هذه المقول تعطي إشارة واضحة على أن المحاسبي مرّ بتحول معرفي هام في حياته، والذي ستنعكس آثاره حتماً على جوانب حياته العاطفية والسلوكية. حيث نجد أن القوّتي (1971) قام بتحليل زمني هام ببناء لمراحل الرحلة النفسية للمحاسبي، وهذا بناء على مقولته السابقة، حيث قال: "وهذه الكلمة مهمة جداً في تحديد الفترة التي بدأ فيها تحول الحارث عن علوم الفقهاء، والمحدثين، ورجال أهل الكلام، إلى مذهبه المتميز عن مذاهب هؤلاء جميعاً. فإذا تذكرنا أنه ولد حوالي (165هـ) فإننا نستطيع القول أنّ تحوُّله بدأ قبل العقد الأول من

¹³ بوزيداني، إبراهيم، الحارث المحاسبي، مؤسس علم الخطرات والوساوس ورائد تعديل السلوك بالتدبير، (بيروت: مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، 2023)، ص: 51.

¹⁴ Mayer Mayer, A., "Introspective hypnotism and Freud's Self-Analysis: procedures of Self-Observation in clinical practice", *Revue d'Histoire des Sciences Humaines*, 5/2, (2001): 171-196.

¹⁵ أبو حامد الغزالي، "المنقذ من الضلال"، والمفصل إلى ذي الغزاة والجلال، تحقيق: محمد محمد أبوليلة، - نور شيف عبد الرحيم رفعت، (واشنطن: جمعية البحث في القيم والفلسفة، 2001)، ص 217.



القرن الثالث الهجري".¹⁶ وفي موقع آخر من الكتاب نفسه، نجد القوّلي (1971) مرة أخرى يشير إلى معلم هام في مسار الرحلة النفسية والفكرية التي خاض غمارها المحاسبي، حيث قال: "في ... الفترة الواقعة بين (195 – 212) كان الحارث المحاسبي يمر بمرحلة تحول في فكره وسلوكه".¹⁷

3.2. المحاسبي ومسارات التحول الثلاثة

خلال الجمع بين ما أورده القوّلي يمكن أن نخلص للآتي: وهو أن المحاسبي مرّ بثلاث مراحل في حياته الفكرية والنفسية. حيث إن هذه المراحل تتوزع زمانياً على النحو التالي:

3. 2. 1. المرحلة الأولى (170 – 194هـ): ويمكن تسميتها مرحلة الطلاب والتحصيل والتأمل الاجتماعي. وهي الفترة الممتدة من بداية مرحلة الوعي 170هـ وهو سن التحاق الأطفال بالمساجد والكتاتيب للشروع في عملية التربية والتعليم. كما يجب ألا ننسى أن والد المحاسبي كان من رجال الفكر حيث كان قدراً كما أشرنا لذلك سابقاً وهذا لأنه وكما أشار عبد الحليم محمود (1992)، أن عامة الناس في ذلك الزمن كانوا على منهج أهل السنة، والقلة من أصحاب الفكر وممن اشتغلوا بالجدل هم من تبنا مذهب القدر ومن بعده الاعتزال. وكون المحاسبي يعيش ضمن هذا الوسط الأسري، فإنه ولا بد يكون قد استمع واطلع على بعض كتب الجدل والاعتزال.¹⁸ وتنتهي هذه المرحلة بحول سنة 194هـ، وهو الحد بين مرحلة الطلب والتأمل الاجتماعي. وهي المرحلة التي استغرقت ثلاثين سنة من حياة المحاسبي تماماً. ونجد أن المحاسبي أبرز بوضوح هذا الشعور بطريقة صريحة في كتابه "النصائح" حيث قال:

"فلم أزل برهة من من عمري أنظر إلى اختلاف الأمة، وألتمس المنهاج الواضح، والسبيل القاصد، وأطلب العلم والعمل، وأستدلّ على طريق الآخرة بإرشاد العلماء، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء، وتدبريت أحوال الأمة، ونظرت في مذاهبها وأقاييلها، فعقلت من ذلك ما قدر لي، ورأيت اختلافهم بجرأ عميقاً غرق فيه ناس كثير، وسلم فيه عصابة قليلة. ورأيت كل صنف منهم يزعم أنّ النجاة لمن تبعهم، وأنّ المهالك لمن خالفهم".¹⁹

وبعد وصف عامٍ لرحلته التحصيلية، وكذلك إعطاء نظرة عامة عن حال الأمة –وهو دلالة على همّه بحالة المسلمين- نجد ينتقل لوصف تفصيلي دقيق لحال الناس في زمنه بمختلف مستوياتهم المعرفية والاجتماعية. ونجده يركز حال العلماء باعتبارهم صمام أمان الأمة وأملها في تقويم وتعديل سير الناس وإصلاح أوضاعهم. فمن خلال وصف المحاسبي لهم، نجد أن الأمر كان بعيداً عن الأمل المعقود عليهم في الإصلاح والتوجيه. حيث وصف وصفهم قائلاً:

¹⁶ المحاسبي، *العقل وفهم القرآن*، ص 21.

¹⁷ المحاسبي، *العقل وفهم القرآن*، ص 24.

¹⁸ عبد الحليم محمود، "أستاذ السائرين"، *الحارث بن أسد المحاسبي*، (القاهرة: دار المعارف، 1992)، ص: 9.

¹⁹ المحاسبي، *الوصايا*، ص 59-60.



"ثم رأيت الناس أصنافاً. فمنهم: العالم بأمر الآخرة، لقاؤه عسير، ووجوده عزيز. ومنهم الجاهل، فالبعد منه غنيمة. ومنهم المتشبه بالعلماء، مشغوف بديناه، مؤثر لها. ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين، ملتزم بعلمه التعظيم والعلو، ينال بالدين من عرض الدنيا. ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل. ومنهم متشبه بالنسك، متحر للخير، لا غناء عنده، ولا نفاذ لعلمه، ولا معتمد على رأيه. ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء، مفقود الورع والتقوى. ومنهم متوادون على الهواء واقفون، وللدنيا يذلون، ورئاستها يطلبون. ومنهم شياطين الإنس، عن الآخرة يصدون وعلى الدنيا يتكالبون، وإلى جمعها يهرعون، وفي الاستكثار منها يرغبون، فهم في الدنيا أحياء، وفي العرف موتى، بل العرف عندهم منكر."²⁰

من خلال قراءة تحليلية نوعية للفقرة السابقة، نجد أن التحليل النفسي-السوسيولوجي الذي قام به المحاسبي، يمكن استخلاص أنه صنف وفقاً لنوعين من المعايير، وهي كالآتي:

أولاً- المعيار الرئيس: وهو مدى ارتباط الإنسان بالآخرة، ومدى تأثير هذا الارتباط بسلوكه اليومي.

ثانياً- المعايير التفصيلية: وهي خمسة، وتتمثل في الآتي:

1. صحة التدين،
2. درجة التحصيل المعرفي،
3. سلامة القوى المعرفية،
4. مدى التوافق والاتساق بين منظومته القيمية الداخلية ومنظومته المعيارية الخارجية،
5. مدى التوافق الاجتماعي للفرد.

ووفقاً لهذه المعايير صنف المحاسبي الناس إلى تسعة أصناف، وتتمثل في:

1. الشخصية السوية: عالم بحقيقة الآخرة، وبرمجة سلوكه ونظم حياته وفق هذه الحقيقة، وجعلها محفز للسلوك الإيجابي البناء في الحياة اليومية، لكي يحقق النجاح الدنيوي والأخروي. وهي شخصية فاعلة إيجابياً في المجتمع، ويحبب التعامل معها، والانتفاع منها. وهي الشخصية التي تحققت فيها كل المعايير السابقة أو أغلبها بوجهها الإيجابي.
2. الشخصية القاصرة معرفياً أو الجاهلة. وهي شخصية غافلة عن معالم النجاح والسوء في الحياة الدنيا والآخرة. وهي شخصية مؤثرة سلبياً، يستحسن تجنبها.

²⁰ المحاسبي، الوصايا، ص 60-61.

3. الشخصية المحتالة: وهي شخصية تتبنى ظاهراً سمت العلماء والوعاظ، لكنها في حقيقة الأمر تستغل هذه المظاهر من أجل تحصيل فوائد ذاتية لا تمت إلى مظهرها بأي صلة.

4. الشخصية الباحثة عن المكانة الاجتماعية: لكنها استخدمت لهذا الغرض مكانتها العلمية. فهي بهذا شخصية تسعى لاستخدام المعارف الدينية من أجل تحصيل مكاسب معنوية.

5. الشخصية المُقَصِّرة عملياً: وهي فئة حصلت معارف دينية، لكنها غير قادر على توظيفها في الواقع لإفادة الغير، بل هي غير قادرة أساساً على الاستفادة الذاتية من المعارف التي اكتسبوا. وهذا بسبب غياب الآلة المعرفية الخاصة بالاستقراء والاستنباط. ولعل هذا التوصيف ينطبق على بعض من ينتمون لمدارس الحديث، حيث يحفظون الكثير من الإرث والرواية، لكنهم غير قادرين على الاستفادة منها أو إفادة غيرهم.

6. الشخصية المتديّنة ظاهرياً: وهي شخصية تشبه بالعباد والنسك ظاهرياً، دون أن يكون هناك أساس معرفي لتعبدهم أو تنسكهم. ولربما تمثل هذه الشخصية بعض من ينتمون للمدرسة الصوفية، من خلال التقليد، وبغرض الحصول على منافع آجلة. وهذا بحكم جهلهم بحقيقة العبادات والنسك التي يقومون بها.

7. الشخصية المتديّنة معرفياً: دون أن يكون لهذه المعرفة أي أثر إيجابي في تعديل وتوجه السلوك. فهي شخصية خطيرة، تهتم بالجدل والنقاش وخلق الشبهات، لأنها تمتلك معرفة وقدرة على الاستقراء والاستنباط والجدل، لكن كل هذه المعارف والمالكات العقلية غير محصنة بتقوى الله والورع. الأمر الذي يجعلها خطيرة اجتماعياً. ولعل هذه الشخصية تتناسب مع الفئة المنتمية للمذهب الإعتزالي.

8. الشخصية الباحثة عن الاشباع الغريزي: وهي شخصية تقدم اللذة العاجلة على اللذة الآجلة. شخصية لم تجعل الدين ولا العقل ولا المعرفة موجهاً لها، بل جعلت غريزة الشهوات، والسلطة، والمال هي الموجه للحياة. ولعلها تعكس أصحاب الهوى من أمراء وغافلين، ممن غرقوا في الملذات.

9. الشخصية المعادية للمجتمع: وحسب تحليل الإمام المحاسبي، فهي تلك الشخصية الواقفة في طريق الوصول إلى الله عز وجل. تصد الناس عن الخير، بسلوكها، وفكرها، ومشاعرها. أناس يسببون ضرراً محدقاً بمستقبل الناس يوم يلقون ربهم. فهم اعداء النجاح الآجال والعاجل.

الوصف السابق يبرز لنا بوضوح القدرة المعرفية الكبيرة التي تمتع بها المحاسبي، وممدى انخراطه العملي في الحياة الاجتماعية، وعلمه بأحوال الناس النفسية من خلال سلوكياتهم اليومية وتصرفاتهم الاجتماعية. حيث وخلال هذه المرحلة رأى المحاسبي الترف يشيع في أوساط الناس فيفسدها، كما رأى أن العقل يطغى عند المعتزلة ويحاولون فرض هذا النهج بالسيف

والسوط، رغم أنهم يزعمون بأنهم دعاة "حرية الإرادة". كما رأى كيف أن الصراع السياسية بين الأمن والمأمون جعل قيمة الإنسان وحرمة دمه هيئة لا يؤبه بها. وكيف أن تزمت أهل الحديث وحملتهم على العقل ورجاله، عزلتهم عن مراكز التأثير، وصاروا في الأخير ضحية، لا يحلون ولا يعقدون.²¹ وهذا ما دفعه للتفكير في إعادة النظر في مساره الذاتي، وتحديد موقعه النفسي والمعرفي والإصلاحي. الأمر الذي نقله للمرحلة الثانية من حياته، المرتكزة على الملاحظ الاستنباطية وتحليل الذات.

3. 2. 2. المرحلة الثانية (195-212هـ): مرحلة الملاحظة الاستنباطية أو تحليل الذات: وهي المرحلة التي أشار إليها القوّتي (1971) بين الفترة الممتدة بين 195 هـ إلى 212 هـ. وهي المرحلة التي بدأ فيها المحاسبي بالمراجعات الذاتي، حيث انتقل من التأمّلات الخارجية إلى مرحلة تحديد موقعه ضمن المتغيرات حوله. حيث وبعد وصفه للأوضاع الاجتماعية، والسياسية، والحالة الروحية والنفسية والمعرفية لأصحاب الدارس الفكرية، عاد للحديث ومناقشة موقعه من هذه التداخلات، حيث نجده يقول:

"فتفقدت في الأصناف نفسي، وضقت بذلك ذرعاً، فقصدت إلى هدى المهتدين بطلب السداد والهدى، واسترشدت العلم، وأعملت الفكر، وأطلت النظر، فتبين لي من كتاب الله وسنة نبيه، وإجماع الأمة، أن اتباع الهوى يعمي عن الرشد، ويضل عن الحق، ويطيل المكث في العمى. فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبي، ووقفت عند اختلاف الأمة مرتاداً لطلب الفرقة الناجية، حذراً من الأهواء المردية، والفرقة الهالكة، متحرزاً من الإقترام قبل البيان، وألتمس سبيل النجاة لمهجة نف بي."²²

فبعد تحديده معايير تصنيف الفئات الاجتماعية الممارسة للفكر والسياسية، تتضح لنا جلياً من خلال هذه الفقرة المنهجية التي اعتمدها المحاسبي في تحليل وتحديد مساره الإصلاحي الذاتي والاجتماعي، وما يسعى إليه من منزلة وتوجهات مستقبلية، من خلال أربعة أسس متكاملة، وهي:

أولاً- أستشعار المشكلة، والعزم على ضرورة الشروع في عملية الإصلاح النفسي والتعديل السلوكي. من خلال السعي لبلوغ الهدى الروحي والسداد السلوكي. لكن هذا الأمر يحتاج إلى مرجعية ومنهجية. لذلك نجده يحدد مرجعيته ومنهجه.

ثانياً- فمرجعيته كانت كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع الصالحين من علماء الأمة، ومنهجيته كانت، المعارف والعلوم التي حصلها، ومن خلال الاستقراء والاستنباط. لكن هذا الأمر كان يلزمه أمر هام، وهو التجرد والموضوعية، وهذا ما دفعه لخطوة مهمة أخرى.

²¹ المحاسبي، فهم القرآن، ص 24.

²² المحاسبي، الوصايا، ص 61.

ثالثاً- إسقاط الهوى: حيث شرع في تحقيق شرط روعي هام جداً يخدمه من الناحية الروحية، والفكرية، والموضوعية، وهو التحرر من سطوة الهوى. وتحقيق هذا الشرط يساعده صاحبه على الوصول للحقيقة بعون الله تعالى، لأن الهوى يعي البصيرة، والتحرر منها يورث البصيرة والرشاد. ثم إن البصيرة الناتجة عن التجرد من الهوى، تورث الإنسان صفاء في الفكر وتجليات الحقائق. وبوجود البصيرة، وحضور الفكر، تنعكس هذه اللطائف على السلوك والأخلاق فيكون الإنسان أكثر موضوعية، وبعيداً عن الذاتية والأنانية.

رابعاً- تحديد الهدف الذي يسعى إليه: فمن خلال جعل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن هذه الأمة تفتقر على ثلاث وسبعين فرقة"، منطلقاً لحركته، شرع في طلب مواصفات الفرقة الناجية من بين تلك كل الطوائف التي وصفها في حديثه السابقة. فهو بهذا، أعد نفسه روحياً، وفكرياً وأخلاقياً لتصحيح مساره، ثم بعد هذا حدد النموذج والهدف، من أجل ضبط حركته. فهو إذن حدّد المنطلق والغاية، وهياً نفسه للحركة.

بعد تحديد معايير تصنيف السلوكيات السوية وغير السوية، وتصنيف الشخصيات السوية والمضطربة في المرحلة الأولى، قام الإمام المحاسبي كما وضّحنا بتحديد موقعه ضمن هذه الشخصيات، وهذا وفق أربعة أسس، جاء الوقت ليحدد منهج الحركة وآليات العلاج وتعديل السلوك، ورسم معالم مدرسته الجديدة والمتفردة بوضوح. وهذا في المرحلة الثالثة من مراحل مسيرته في المراجع والتعديل.

3.2.3. المرحلة الثالثة (212-243هـ): مرحلة التأسيس لمعالم الشخصية المرجعية، أو ما يسمى في علم الصحة النفسية بـ المعيار المثالي Idealistic Criterion. ونجد أن هذه المرحلة امتدت من سنة 212 إلى 243هـ، وهو تاريخ وفاته رحمه الله تعالى. حيث يصف الفئة التي تتحقق فيها معايير السواء السلوكي والمعرفي والروحي، فيقول:

" فقيض لي الرؤوف بعباده قوماً وجدتُ فيهم دلائل التقوى، وأعلام الورع، وإيثار الأخرة على الدنيا. ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى، ووجدتهم مجمعين على نصيحة الأمة، لا يرجون أبداً في معصيته، ولا تقنطون أبداً من رحمته، يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، يحبون الله تعالى إلى العبيد، ... ويحثون على الإنابة إلى الله تعالى، علماء بعظمته، وعلماء بكتابته وسنته، علماء بما يحب ويكره، ورعين عن البدع والأهواء، تاركين للتعق والإغلاء، مبغضين للجدل والمرء، متورعين عن الاغتياب والظلم، مخالفين لأهوائهم، محاسبين لأنفسهم، مالكين لجوارحهم، ... مجانبين للشبهات، تاركين للشهوات، ... مشفقين من الحساب، وجلين من المعاد، ... علماء بالأخرة وأقاولي القيامة، وجزيل



الثواب وأليم العقاب، وذلك أورثهم الحزن الدائم، والهيم المقيم، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها.²³

إذن ومن خلال ما سبق ذكره، يمكن تحديد سمات الشخصية المرجعية أو المعيارية في الآتي:

- التقوى والورع، - إثارة الآخرة، - التوافق بين القول والسلوك، - الإيجابية الاجتماعية، - تجنب السلوكات السلبية، - الأمل والتطلع الإيجابي للمستقبل، - المرونة والتكيف، - الرضا، - الشكر والعرفان Gratitude، - العلم (بالله عز وجل، والقرآن، والسنة)، - الكفاء في عرض أفكارهم للغير، - السيطرة على الجوارح والعواطف والنزوات، الوسطية الفكر والسلوكية - البعد عن التطرف، - البعد عن الجدل، - تجنب الغيبة والظلم، - مراجعة النفس، - سلامة منظومة الفكر المنطقي، - التفكير في المآلات، - التركيز على العاطفي والسلوكي على الهدف النهائي.

هذه المعايير التي حددها المحاسبي لتكون السمات العامة للشخصية السوية، أو التي تتمتع بالسلامة والصحة النفسية والاجتماعية والمعرفية، هي التي تحدد مسار المحاسبي في تعديل السلوكات والعلاج النفسي، والبناء المعرفي السليم، والتفاعل الاجتماعي القويم. وبهذا نجد أن المحاسبي قد رسم معالم علام جديد أو قل مدرسة جديدة للعلاج والتعديل السلوكي. هذا العلم الذي كان صعباً على معاصريه أن يفهموه أو أن يجدوا له تصنيفاً معرفياً وفقاً للواقع الفكري والمعرفي الذي كان سائداً في تلك الفترة. فكيف تفاعل أهل العلم والفكر في ذلك الزمن ومن أهتم بفكر المحاسبي في العصور المتأخر معه ومع فكره؟

4. الحارث المحاسبي وتأسيس مدرسة علم الخطرات والوساوس

رغم وجود مدارس فكرية متنوعة، بل إن الفترة التي عاش فيها المحاسبي تعتبر فترة ازدهار العلمي والمعرفي في العالم الإسلامي وانفتاحها على معارف وعلوم الأمم الأخرى، إلا أننا نجد أنه يشير إلى علم أراد إحيائه بعد أن كاد يندثر. يقول المحاسبي في هذا الصدد:

"فإلتمست من بين الأمة هذا الصنف المجتمع علمهم، والموصوفين بأثارهم. واقتبست من علمهم، فرأيتهم أقل من القليل، ورأيت علمهم مندرساً كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء). وهم المتفردون بدينهم. ... فانكمشت في طلب العالم لم أجد لي من معرفته بدءاً..."²⁴

وهو بهذا يشير إلى أن هناك علماً اقتصر على فئة قليلة، وأن هذا العلم يكاد ينسى ويضمحل، ما يعني أن هذا العلم كان مزدهراً في الأيام الخوالي بين علماء المسلمين، لكنه الآن يعاني من الإهمال بسبب اشتغال الناس والعلماء بمسائل تنفي روح الإسلام أو لأنهم اشتغلوا بضروريات معرفية،

²³ المحاسبي، الوصايا، ص 62-63.

²⁴ المحاسبي، الوصايا، ص 62.

لكنهم نسوا العناية بحفظهم من الآخرة. لكننا عندما نتابع تأملات العلماء فيما تميّز به من علم، لم يكن مشتهراً بين أهل زمانهم نجدهم يشيرون إلى علم غريب، لم يتمكنوا من تحديده بوضوح أو بأن يصفوه وصفاً وافياً. وهذا ببساطة لأنّ هذا العلم مبتدع جديد أو أنه كان موجوداً لكنه أهمل في زمن المحاسبي، فحمل همّ إعادة إحيائه.

فمن العلماء الذي حاولوا وصف العلم الذي اشتغل به المحاسبي، نجد أبو زرعة الرازي رحمه الله. لكن العجيب هو أن حديثه عن هذا العلم جاء بصيغة النقد والاستهجان، -ونحن نتفهم الآن نقد الرازي للمحاسبي وعلمه الجديد، بسبب تطور معارفنا بعلم النفس-. فقد جاء في تاريخ بغداد، أن الحافظ سعيد بن عمرو البردعي، شهد الإمام أبا زرعة وقد سئل عن المحاسبي وكتبه فأجاب السائل قائلاً:

"إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدع وضلالات؛ ... قيل له: هذه الكتب عبرة، فقال: من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة، بلغكم أن سفيان ومالكاً والأوزاعي صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس؟ ما أسرع الناس إلى البدع."²⁵

بعيداً عن النقد الذي يضمنه الاقتباس السابق، أود الوقوف قليلاً مع هذا التصريح المهمة جداً، ويمكن اعتباره شاهدة نادرة جداً وهامة وذات دلالة عميقة في نفس الوقت. حين نجد أن أبو زرعة رحمه الله قام بالتأريخ لعلم جديد وهام بدون قصد، وهو "علم الخطرات والوساوس". ونجده في الوقت نفسه يشهد بأن المحاسبي هو أول مؤسس لهذا العلم. كما نلاحظ أيضاً من خلال تلك الشهادة، أن المستمعين أو قل السائلين لأبي زرعة رحمه الله تعالى، لم يقتنعوا بالجواب الذي أورده، ووجدوا أن الجواب الذي أورده لم يكن رصيناً، بالإضافة إلى ذلك وجدوا من خلال اطلاعهم على كتب المحاسبي رحمه الله تعالى، أنها كتب "عبرة". هذا التعقيب أو الاعتراض على جوابه، دفع أبا زرعة للتعقيب بقوله: "ما أسرع الناس إلى البدع".

محاولات توصف العلم الذي أبدعه المحاسبي لم تتوقف على ما قاله أبو زرعة، بل نجد أن الغزالي قد جاء بتوصيف جدّد له، حيث نجده في كتابه الإحياء يصف المحاسبي وما تميز به من العلم بالآتي: "المحاسبي حبر الأمة في علم المعاملات، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس، وآفات الأعمال، وأغوار العبادات، وكلامه جديرٌ بأن يحكى على وجهه."²⁶ فنجد أن الغزالي قد أطلق على هذا العلم الذي أبدعه المحاسبي إسم: "علم المعاملات"، ووضح أن موضوع هذا العلم هو: عيوب النفس، وآفات الأعمال، وأغوار العبادات، وتعبير معاصر، فإن موضوع هذا العلم هو:

²⁵ الخطيب البغدادي، "تاريخ مدينة السلام"، وأخبار محدثيها ونكر قائلها العلماء من غير أهلها وولديها، تحقيق: بشار عواد معروف (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2001/1422)، 9: 110.
²⁶ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 2005/1426)، ص: 1171.

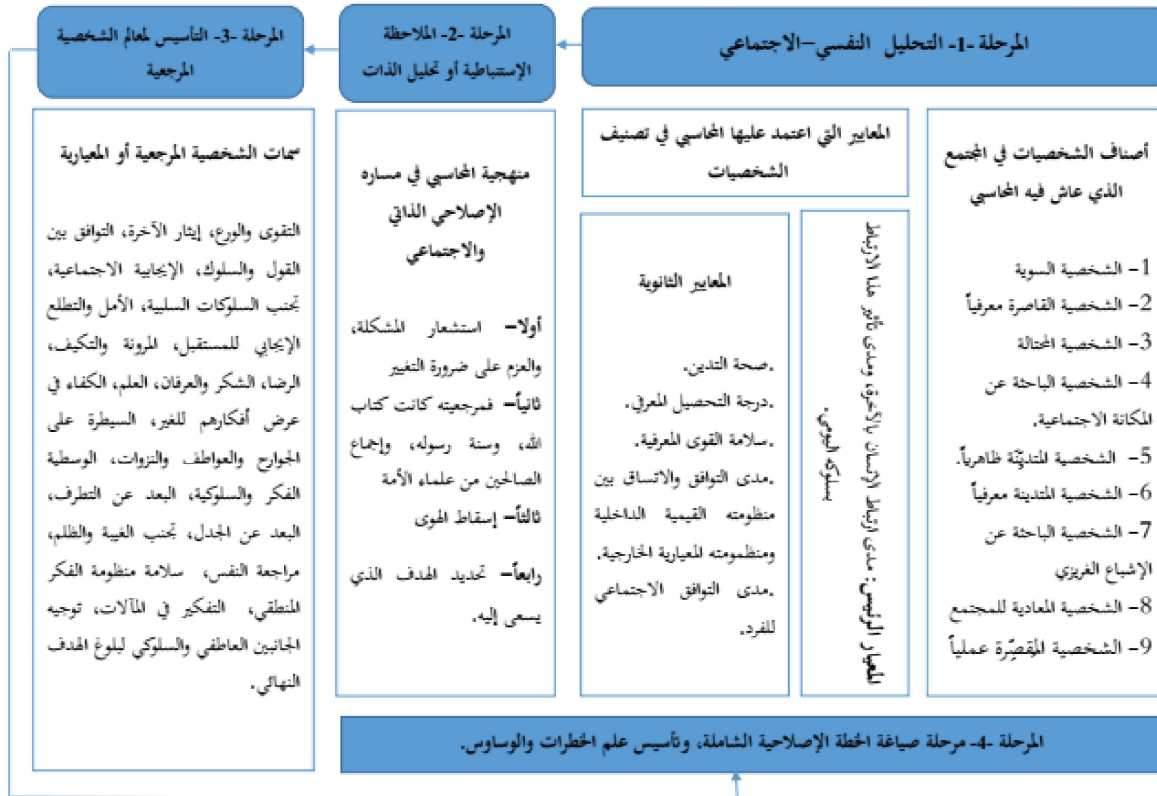
الاضطرابات النفسية الناتجة عن السلوكيات اليومية الاعتيادية أو عن السلوكيات ذات الطابع الديني. كما نجد أن الغزالي مرة أخرى، يؤكد أن المحاسبي كانت له يد السبق في ابداع هذا العلم.

لم تقتصر محاولات توصيف هذا العلم الجديد على علماء السلف فحسب، بل نجد أن الكثير من المستشرقين ممن اهتموا بفكر المحاسبي، لم يخفوا اعجابهم وحيرتهم من طبيعة العلم الذي جاء به. فنجد لويس ماسينيون (Massignon Louis) يصرح معلقاً في كتابه "مصطلحات التصوف" عن كتاب "الرعاية" للمحاسبي قائلاً: "لقد سما بالتحليل النفسي إلى مراتبة لا نجد لها مثيلاً في الآداب العالمية إلا نادراً".²⁷ وفي نفس السياق، نجد أن المستشرقة ثيودور نولدكه (Theodor Noldeke)، تصف المحاسبي بأنه إمام التحليل النفسي بين علماء الإسلام.²⁸ وبهذا نجد أن ماسينيون ونولدكه اتفقا على أنَّ المحاسبي هو رائد من أهم رواد "التحليل النفسي" في العالم. وتجدر الإشارة هنا إلى أن إطلاق تسمية التحليل النفسي من طرف المثقفين في الفترة التي عاش فيها ماسينيون ونولدكه كان يقصد بها علم النفس عموماً. وهذا كون أن المدرسة التحليلية التي أسسها سيجموند فرويد كانت لها السيطرة الكاملة على الساحة المعرفية لعلم النفس، أنظر المخطط رقم (1).

²⁷ نقلاً عن: محمود، "استاذ السائرين"، الحارث بن أسد المحاسبي، ص: 25.

²⁸ البشير قلاتي، "معرفة النفس وعلاجها عند الصوفية، الحارث بن أسد المحاسبي نموذجا"، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة 7 (فيفري 2018): 211.

المخطط (1): المراحل الثلاثة للرحلة النفسية التي مرَّ بها المحاسبي، وأهم مخرجات كل مرحلة.



تسمية أخرى تمَّ اقتراحها من طرف مستشرق آخر، حيث أورد مصطلحاً جديدة يصف العلم الذي أسسه المحاسبي. ففي كتابه "الإسلام" علّق ريتير (H. Ritter) حول جهود المحاسبي المعرفية قائلاً: "إن المحاسبي في الواقع هو منشئ مبادئ التحكم الأخلاقي المنظم في الذات Principles of structured moral self-control في إطار التقوى الإسلامية".²⁹ ريتير "ومن خلال تعليقه هذا، يجعل المحاسبي أحد مؤسسي مدرسة تعديل السلوك. وهو العلم التطبيقي المستمد من النظريات النفسية المتعلقة بإعادة تشكيل السلوك أو تعديله بطريقة منهجية. وهو بهذا يصنف علمه ضمن العلوم السلوكية التطبيقية التي تهدف إلى إعادة صياغة السلوك. وبهذا نجد ورغم تعدد التسميات، إلا أنها تدور في نفس الفلك، ألا وهو فهم السلوك، ومنطلقه، والعمل على علاج منطلقات الانحراف وتعديله المنحرف من الأفعال. فهو تعديل للسلوك أن نظرنا إلى المنتج النهائي، وهو تحليل نفسي باعتبار ما يدور في دواخل الإنسان من صراع بين الخير والشر، أو هو علم الخطرات والوساوس باعتبار أصل الأمر ومنبعه.

الخاتمة

²⁹ محمود، "استاذ السائرين"، الحارث بن أسد المحاسبي، ص: 48.



أن العمل الإصلاحي، والعمل على دعوة الناس إلى الخير، وإلى توجيههم لما فيه خيرهم في الحياة الدنيا والآخرة، لهو من الأسس العظيمة التي تميز بها الأنبياء والمرسلون. فهم أعلم الناس بخصائص النفس وتقلباتها، وهم أعلم بمدخل الناس وأبواب القلوب ومفاتيحها. كيف لا، وهم المبلغون لهدي ربنا والداعون إليه. وعلى هذا النهج سار العلماء الربانيون، يدعون الناس للخير والفلاح. لذلك نجد أن هؤلاء العلماء، كانوا يولون إهتماماً بالغاً لحقائق النفس، ومدخلها، وطرائق القلوب، ومفاتيحها. لذلك، ليس من العجب أن نجد الإمام المحاسبي قد أولى إهتماماً كبيراً بعلم الوسواس والخطرات. الذي اعتبره من العلوم التي غفل الناس عنها وعن أهميتها.

لذلك عمد إلى إعادة بعثه بعد أن كاد يندثر. لكنه في هذه المرة أراد إحيائها من خلال منهجية مدروسة وطرائق محددة. هذا الاجتهاد الجديد، وتلك الأساليب التحليلية الجديدة التي اعتمدها المحاسبي، جعلت بعض من عاصروه من العلماء والمحدثين يتخذون منه مواقف سلبية. بل وصل الأمر ببعضهم إلى وسمه بالبدعة والدجل. وهذا كله بسبب أنه وفق للوقوف على علم مستحدث، طور طرائقه ومناهجه، ولم يكن هذا العلم، إلا الإرهاصات الأولى لما اعتبر في القرن التاسع عشر بعلم النفس. هذا العلم الذي كان من المفروض أن يخدم ويوجه وجهته العلمية الصحيحة. لكن يا للأسف، نجد أن الأمة غفلت عنه، ولم تنتبه له إلا بعد أن طوره الغرب وفق ثقافتهم ومبادئهم الاجتماعية.

لذلك، بات من الواجب على الباحثين إعادة الاعتبار لجهود علماء المسلمين، وما بذلوه في سبيل إحداث وتطوير علم النفس وفق المبادئ والثقافة الإسلامية. ومن هذا المنطلق جاء هذا الجهد الأكاديمي من أجل فتح طريق أو رسم معالم إعادة بعث وتجديد ما بدأه الإمام المحاسبي رحمه الله تعالى.

قائمة المراجع والمصادر

المراجع العربية

إن حنبل، عبد الله بن أحمد. **السنة**، تحقيق. محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، المجلد 1. (الرياض: دار ابن القيم، 1406/1986).

الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه. **العقد الفريد**، تحقيق. مفيد محمد قمحية، المجلد 1. (بيروت: دار الكتب العلمية، 1404/1983).



البغدادي، الخطيب. "تاريخ مدينة السلام"، وأخبار محدثها وذكر قطّانها العلماء من غير أهلها ووارديها، تحقيق: بشار عواد معروف، المجلد 9، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2001/1422).

بوتول، جاستون. تاريخ علم الاجتماع، ترجمة: غنيم عبدون، مراجعة: جلال حسن صادق، (القاهرة: المطابع القومية للطباعة والنشر، 1971).

زيعور، علي. علم النفس في ميادين وطرائقه، (بيروت: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، 1993/1413).

السمعاني، أبو سعد محمد بن منصور التميمي. الأنساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلي اليمني وآخرون، (حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، 1977/1397).

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. تاريخ الخلفاء، تحقيق: اللجنة العلمية بمركز دار المناهج للدراسات والتحقيق العلمي، الطبعة 2. (جدة: دار المناهج للنشر والتوزيع، 2013/1434).

الغزالي، أبو حامد. إحياء علوم الدين، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 2005/1426).

الغزالي، أبو حامد. "المنقذ من الضلال"، والمؤصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق: محمد محمد أبوليلة، - نور شيف عبد الرحيم رفعت، (واشنطن: جمعية البحث في القيم والفلسفة، 2001).

القشيري، أبو القاسم. الرسالة القسرية، تحقيق: عبد الحليم محمود (القاهرة: مطبع مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، 1989/1409).

قلاطي، البشير. "معرفة النفس وعلاجها عند الصوفية، الحارث بن أسد المحاسبي نموذجاً"، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة 7 (فيفري 2018): 197-220.

المحاسبي، الحارث بن أسد. العقل وفهم القرآن، تحقيق: حسين القوّلي (بيروت: دار الفكر، 1971/1391).



المحاسبي، الحارث بن أسد. *الوصايا*، تحقيق. عبد القادر أحمد عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، 1406/1986).

محمود، عبد الحلیم. *"أستاذ السائرين"*، الحارث بن أسد المحاسبي، (القاهرة: دار المعارف، 1992).

النيسابوري، فريد الدين عطار. *تذكرة الأولياء*، ترجمة. محمد الأصيلي الوسطاني الشافعي، تحقيق. محمد أديب الجادر، (دمشق: دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، 2014).

المراجع الغربية

Assarroudi, A, Nabavi, F, Armat, M, Ebadi, A. and Vaismoradi, M., *"Directed qualitative content analysis: the description and elaboration of its underpinning methods and data analysis process"*, Journal of Research in Nursing, 23/1, (2018): 1-14.

Mayer Mayer, A., *"Introspective hypnotism and Freud's Self-Analysis: procedures of Self-Observation in clinical practice"*, Revue d'Histoire des Sciences Humaines, 5/2, (2001): 171-196.

Vears, D.F., & Gillam, L., *"Inductive content analysis: A guide for beginning qualitative researchers. Focus on Health Professional Education"*, A Multi-Professional Journal. 23/1 (2022): 111-127.